رؤى المستقبل للرواية الخيال العلمي -مقاربة في المفاهيم و الآفاق المسارية في سياق أسئلة المستقبل -.

Article title in Englis:Future visions for the science fiction novel - an approach in concepts and course horizons in the context of future questions -.

د. نادية نعاس *

تاريخ الإرسال: 2021/01/22	تاريخ القبول: 2021/08/22	تاريخ النشر: 2022/05/01

الملخص:

تعد روايات الخيال العلمي الشكل التعبيري السردي الذي مكن الروائي من استخدام الزمن المستقبلي ، و هذا مع اللعب بأزمنة الثلاثة : الماضي و الحاضر و المستقبل ، مع استثمار المعطيات العلمية المتعلقة بالإنسان و المكان و الفضاء ، اضافة إلى المعطيات السياسية و الفكرية الفلسفية ؛ كل هذا من تقديم رؤية واضحة في بناء التقدم العلـــــمي و التكنولوجي للعالم .كما أن نصوص رواية الخيال العلمي مرجعها خارج ذاتها ؛ هي الواقع في أزمنة الثلاثية ، لأنها تعالج الواقع السياسي و الاجتماعي بطريقتها الخاصة ؛ من خلال إدخال عنصر الدهشة و الغرابة و توظيف بعض الخطابات (الخطاب الديني ، الخطاب الفلسفي ،الخطاب العلمي و التاريخي الخطاب الثقافي..).

و منتهى القول ، كي تتحقق كتابة رواية الخيال العلمي يجب على الروائي أن يكون ذو معرفة ضمنية ؛ من أجل خلق عالما سرديا متعددا ممتدا إلى كافة الحقول المعرفية .كما أن كتاب رواية الخيال العلمي في أغلب الأحيان يوهموننا بوقائع و أسماء و أحداث مفارقة فانتاستيكية التي تتسم بـ: الغرابة و البعد عن الواقع ، و هكذا يقودنا كتاب رواية الخيال العلمي إلى أماكن مجهولة و مسارات غير متوقعة هدفها تقدم المتعة للقارئ و تزويده بمعارف و نظريات علمية .

المؤلف المرسل: نادية نعاس nadianaas445@gmail.com

* **جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله nadianaas445@gmail.com**

الكلمات المفتاحية: الخيال العلمي ، الخطاب، السرد، الرواية ، المستقبل.

Abstract:

The navels of science-fiction are considered as the only expressive recitative form which permute to the novelist to use the time of the future ; playing with the three tenses: past ;present and future and exploiters scientific facts related to man ; Se hinge and space ; as well as political ; intellectual and philosophical facts in order to present a clear vision in the elaboration of scientific and teleological progress of the world . the novelists of science-fiction texts are outside their reference . It is a reality in the three dimensions of tine because they deal with political and social relate in their own manner ; by introducing an amazing and abnormal element and casing special speech : religious speech ; philosophical speech ; scientific and lustrous speech cultural speech… .

For the fulfillment of the mutiny of novels of science-fiction ; the novelist must have implicit knowledge k in order to create multiple recitative world that is expended to all domains of knowledge . the novel of science-fiction makes us believe in facts ; names and fantastic paradoxical events characterized by the abnormal and unreal .

In this way ; the novelists of science-fiction take us in nom-identified places and unexpected ways which tend to give pleasure to the reader and provide lain with knowledge and scientific theories .

Key words:*Science fiction, discourse, narration, novel, future.*

*** *** ***

تومئ الرواية عن الحقل الذي تتلاقح فيه المعرفة و الخيال و الفن و حكي و الكون .و من هذا المنظور للرواية ، سنتطرق إلى الحديث عن جنس روائي ذو أهمية بالغة في الأدب ، ألا و هو رواية الخيال العلمي . فما الخيال العلمي ؟ و ما غاية المبدع في كتابة هذا النوع من الروايات ؟ و ما هي الآفاق المستقبليةلأدب الخيال العلمي ؟.

إنّه لمن قبيل المهمة الشاقّة البحث في البحث حول مفهوم الأدب ، تبدو هذه كلمة مصطلحاً حاملاً لمعاني شتى و إذا جئنا لتعريفه بشكل عام فيعد ديوان الإنسانية جمعاء

على مر العصور ؛ يستمد موضوعاته من المجتمع الذي يحيط بالإنسان و هذا ما أكده لسان طه حسين في " خصام و نقد " أنه : « لا يكون الأدب أدباً حتى يصور حياة الناس ، و ليس في الأرض أدب إلا و هو يصور حياة أصحابه»[1] فأدب هو ملكة فكرية و فنية التي تعبر عن كل شيء في الأرض ، فمهما كان صنف الأدب أو جنسه –شعر ، مسرح ، قصة ، رواية ، خطبة ، مقال ...- يستمدها ترابة واقع المعيش ، فالأدب هو خادم الإنسان و الإنسان خادمه .

لقد صنّف النقاد الأدب إلى أصنّاف مختلفة و متعددة ، و هذا باختلاف المدارس و النظريات ، فهناك أدب : واقعي ، اجتماعي ، سياسي ، ديني ، فلسفي ، اقتصادي ، أدب حقيقي و أدب غير حقيقي ...إلخ . و من هذا المنظور يعد الأدب هو التعبير الحقيقي عن الحياة الإنسانية جمعاء ، سواء إن كان في ماضيها أم حاضرها أم مستقبلها ، فالأدب هو الجودة و الوجودية الشاعرية التي تساعدنا في " التفكير العميق حول مصير الإنسان " ، و من بين الأجناس الأدبية التي عبرت عن مصير الإنسان هي: ' الرواية ' .

تعد الرّواية جنساً أدبياً عاماً مختلفاً عن الأجناس الأدبية الأخرى ، فهي جنس مهم لأسباب متعددة منها : تحقيق متعة عناصر المنطق و العقل و الخيال . فهي تشكل ثنائية : القارئ و المدينة ، الفرد و الجماعة ، العبارة و الخيال ، اللغة و الذاكرة ، الخطاب و البِنية.

بهذا الشكل ، الرّواية فضاء مكتوب يتجلى فيه الخيال المبدع في تصويره للواقع تصويرا فنيا جديدا مع خيال المجتمع .لأنها تشكلت من خليط من العوامل التي تبلورت عبر التاريخ انطلاقا من الشعر الجاهلي و أخبار العرب و أيام العرب و المقامة و النوادر و الأصناف الإسلامية التي تراكمت منذ القرن الأول الهجري – السادس الميلادي – إلى يومنا هذا[2] .

إذن ، الرّواية هي مركز جميع الفنون و الأدب و العلوم و استراتيجية الكتابة و الحكي ،و يذهب إيف روتر Yves Reuter في تعريفها قائلا : « مبدئياً ليس لمعنى الرواية حدود يمكن لها أن تتكلم عن الفرد ، و عن المجتمع ، عن التطور ، و عن الالتزام ، و يمكن لها أيضاً أن تقدم نقدا للمجتمع نظرة شاملة جامعة دقيقة له»[3] . و من هذه الرؤية ، تنكشف جمالية الرواية و أهميتها عن طريق تعدد طرق المناهج التحليلية لها ؛ أي يمكن

دراستها من ناحية الشكلية (دراسة الشخصية ، الزمن ، المكان ،) أو من ناحية المضمون (قراءة تأويلية) أو اعتماد المنهج السيميائي أو البنوي ، أو على مستوى التراكيب النحوية و الصرفية و الصوتية و الدلالية و المعجمية ، و أجمل في دراسة الرّواية هو اختلاف طرق التحليل من كاتب إلى الآخر ؛ قد يعود السبب كذلك إلى أصنّاف الرواية – واقعية ، خرافية ، سياسية ، بوليسية و الخيال العلمي ...إلخ . و لعل هذا ما دفع بسعيد يقطين إلى اصدار كتابين متلازمين متتابعين في تحليل الرواية ، و لم يجملهما في كتاب واحد ؛ فالأول جاء بعنوان : تحليل الخطاب الروائي. و يعالج فيه التقنيات التي تجعل من أي مادة قصصية رواية ؛ و هذه تعد مهمة الخطاب ، و الكتاب الثاني معنون بـ: انفتاح النص الروائي و يعالج فيه المادة القصصية دون الكيفية التي عرضت بها .و هذا التمييز يذكرنا بقوة المسألة بين الشكل و المضمون .

هذا ما شغل الكثير من محللي الخطاب و على رأسهم ميخائيل باختين ، الذي يرى : « أن الرواية لا يمكن أن تخضع لتحليل بقانون واحد و إنما تعتمد على عدة طرق و قوانين في تحليل ،على خلاف الأنواع الأخرى ، لا تمتلك قوانين خاصة ، و ما هو فعّال تاريخيا ، يتشكل من نماذج روائية عدة ، و ليس من القواعد الروائية بحد ذاتها»[4]. إن الرواية هي الحقل الذي تتداخل فيه المعرفة و الخيال و الفن و حكي و الكون .

يعد أدب الخيال العلمي بموضوعاته و انشغالاته و كتابته و جماليته القيّمة ؛ أداة علمية و فلسفية و تربوية ؛ لأن أدب الخيال العلمي يلتقى في محتواه بالفلسفة و السياسة و الاقتصاد و الاجتماع ، و هذه الفكرة متفق عليها في مجال العلوم الإنسانية و الاجتماعية .

و بالتالي ، أثبتت الدراسات أنه لا يوجد تعريف جامع و شامل و كافي لأدب الخيال العلمي ، فهو أدب ينتمي إلى العلوم الإنسانية و الاجتماعية و اللغوية الفنية ، لذلك أصبح لائقا الأخذ ببعض التعاريف المقترحة لهذا المصطلح ، نظراً لاختلاف بعض الأخصائيون في تعريفهم للخيال العلمي .

كما قلنا سابقا ، أنه تعددت التعاريف للخيال العلمي ؛ و إذا أخذنا البحث بعين الاعتبار عن بداية ظهور هذا الجنس الأدبي كان كما تزعم ستابل فورد برن Stable Ford Brian : « بأن المصطلح قد ابتكر قبل 1929 و ذلك من طرف williamwilson الذي

أعطاه معاني أخرى ، فإننا سنجد أنفسنا أمام امتداد المعنى و اتساعه»[5].يوضح هذا التعريف أن بداية هذا اللون العلمي كان موجود منذ القديم و لكن قد تعددت فيه التسمية ، فمنهم من كان يسميه " التغريب Distanciation " و يقصد به العلاقة التي تربط المعرفة العامة في زمن الكاتب ، و بعض النقاد أطلقوا عليه اسم " الغيرية Altérité " . أما اليوم أصبح يعرف باسم الخيال العلمي Science Fiction .

يعرف بعض الكتاب الغربين الخيال العلمي بأنه جنس أدبي يعتمد على الخيال ، أي من خلال علاقته بالمتخيّل فهو:« جنس أدبي يعطي للخيال مكانة رئيسية ، فهو ليس علماً مع أنه في بعض الأحيان يعتمد على الرياضيات و الفيزياء و الفضائيات و علم الأحياء ، و بأهمية أقل على التاريخ و علم الاجتماع و اللسانيات . فهو يشبه جميع أشكال الروايات ...لكن تحت غطاء الرواية الممتعة أو الجادة ، فهو أسطورة الحداثة ، في تطورها ، و ككل أسطورة فهو مركز الثقل لكل أحلامنا ، لأحلام كل الأزمنة»[6].

يشير هذا التعريف إلى أن الخيال العلمي هو نص متعدد الأبعاد ، تتمركز فيه كل المعارف ، مع تحقيق العلاقة الموجودة بين الأدب و الخيال و العلم و الأسطورة ، هذا ما يسمح بتوسع مخيّلة الروائي و الاحتكاك مع كل الثقافات و المعارف . و تطورات التي تقربه مما هو واقع ، فأدب الخيال العلمي هو قراءة كاشفة لمستقبل الحضارة البشرية في ظل التطورات العلمية الهائلة على الأرض و في فضاء الكون .

و يذهب جاك بودو إلى أن : « أدب الخيال العملي تعرض إلى تطورات كثيرة ، و عرف طفرات و تهجيناً كما عاش ثورات متلاحقة ، مما جعل التعريفات تتوسع لتشمل أنواعا كثيرة قد تظهر أبعد ما تكون عن الخيال العلمي ، خصوصا أن الأصول التي تشكل منها متعددة و تعود إلى مراحل تاريخية متعددة»[7].ينصرف هذا القول إلى أن الخيال العلمي استفادة من الأدب العجائبي و الخوارقي ، فهو يستمد أسسه من الاستشرافات العلمية و الفرضيات العلمية التي ما زالت في طور التجريب . هذا ما أدي إلى الخلط بين الخيال العلمي و الفانتازيا العلمية . في هذا الخصوص تجمل ليزا توتلي إلى ضرورة التمييز بينهما قائلة : « فالخيال العلمي يميل إلى حكي أشياء ممكنة الحدوث على مستوى النظري ، أو على الأقل بما لا تعرف بأنها مستحيلة الحدوث ، على العكس من الفانتازيا العلمية التي تحكي عما هو مستحيل ، كأعمال السحر التي لا تحتاج إلى تفسير»[8]. و بالتالي إن رؤية ليزا

توتلي للخيال العلمي أنه يمكن تفسيره و لكن الفانتازيا العلمية هي حدث خام محض غير قابل لنقاش و تشاور و تفسير .

علاوة إلى هذه التعاريف الغربية ، سنحاول ادراج بعض التعاريف العرب ؛ و من بينهم مجدي وهبة قائلة :«الخيال العلمي هو ذلك الفرع من الأدب الروائي الذي يعالج بطريقة خيالية استجابة الإنسان لكل تقدم في العلوم و تكنولوجيا سواء في المستقبل القريب أو البعيد ، كما يجسد تأملات الإنسان في الاحتمالات وجود حياة الأجرام السماوية الأخرى »[9] .في حين يعرفه رؤوف وصفي من حيث هدفه قائلا :«فهو يهدف إلى عرض الحقيقة العلمية بأمانة و صدق و بنظرة مستقبلية و إن تغلفه بغلاف له تألق القصة و بريقها»[10] .ينقشع هذا التعريف بشكل كبير حول حرية الخلق و الابتكار ؛ فهذا الحديث يطوف حول الأمان و الصدق في عديد من هذه الروايات .

و تقترح مها مظلوم في تعريف رواية الخيال العلمي تعريفا أكاديمياً ، فتقول هي: « رواية مستقبلية تقوم على الحقيقة الثابتة حينا أو المتخيلة عن جانب مجهول من الكون و الحياة حيناً آخر شخصياتها اسمية أو رقمية غير مكتملة الهيئة النفسية و الجسدية ، تنقل زمان الخطاب الروائي – المسرود في الغالب – إلى زمان مستقبلي أو استرجاعي متوهم ، و إلى مكان خيالي ، أحداثها مشوقة و مثيرة تدفع إلى التفكير في نتائج هذا الخيال المتين و الموظف ، فتقدم حلول مستقبلية لما يجب أن تكون عليه الحياة في ظل التقدم العلمي المتسارع كذلك تقدم محاذير لنتائج تلك النظريات العلمية إذا أسرع استخدامها دون حساب النتائج ،و عنصراها العلم و الأدب»[11] .

و حسب رأي طارق الجبوري : « مصطلح الخيال العلمي لا يعني على الإطلاق الالتزام الدقيق بالحقائق العلمية الصرفة ، و معنى ذلك أن ظاهرة الطموح في أدب قصص الخيال العلمي ليست منبثقة من مجال العلم المحض ، أي عن التنبؤ العلمي ، بل هي – بعد التحليل الدقيق- حالات خيالية وجدانية قد تصدق أحيانا أو لا تصدق في الأعم الأغلب في المستقبل المنظور ، و ربما تصدق في المستقبل البعيد فهي كالأحلام أو الأماني الجميلة ، و إن كان بعضها ممكن التحقيق في يوم من أيام هذا ناهيك عن كون مصطلح fiction ينطوي على حوادث خيالية محضة أو مبالغ فيها إلى درجة الإزعاج ، أي أن ينطوي على (حكاية خرافية) »[12] .

وفقًا لهذا المنظور ، يعد تعريف طارق الجبوري تعريف جامع لكل الأجناس المرتبطة بالخيال العلمي سواءامن قريب أو من بعيد . و ما يزيد هذا الجنس الأدبي ضخمتا و عمقا هو عبارة fiction التي تمنحه مصداقية أكبر لمعاني المصطلح ، و يغطي كثيرا من معنى كلمة " علم " و هذا ما أكده نوري جعفر في قوله : « يخضع الخيال العلمي و الخيال الأدبي لمنطق العلم ، و يخضع منطق العلم للخيال الأدبي»[13].

و في نظر شوقي جلال ، الخيال العلمي هو البحث عن الاكتشافات و تطورات العلمية الفعلية و المتخيلة للروائي عن طريق التنبؤ لمستقبل واقع حال المجتمعات و الأفراد ، يقول : « و أدب الخيال العلمي هو خيال لروائي مثقف علميا ، متابع لإنجازات العلوم مجذوب مبهور باحتمالاتها ، و تغدو كتاباته مسرحا تنطلق عبره خيالات طليقة العنان بين الكواكب و في الأعماق و مع الكائنات و إن اتخذ من انجازات العلوم منطلقا له مبشرا بوعد العلم أو منذرا بوعيده ، و يفتح بكتاباته آفاق الكون ميسورة لخيال و مدارك العامة ...إنه و ليد واقع اجتماعي منتج للعلم ، سباق في مضمار المناقشة بين أحلام العلماء و مشكلات واقع حياة المجتمعات »[14].

و إذا جئنا للبحث عن أشهر التعاريف و أشملها للخيال العلمي هو تعريف جورج تيرنر . G Turner ، الذي يرى أن : « الخيال العلمي يقدم طريقا بديلا للاهتمامات العامة لدى الغالبية العظمى من القصص القائمة على الحقائق الحياة و مقابل الخيال اللاواقعي الفانتازي الذي يتجاهل قيم الوجود الثابتة من أجل خيال غير محدود»[15].

إذن ، يومئ هذا المعنى إلى إقامة طرق بديلة على حقائق ثابتة تربطها بالعلم الحقيقي ، فأدب الخيال العلمي هو نوع من التعبير الأدبي الذي يستخدم لتنبؤات بقدرات العلم على تحقيق ما يرغب فيه الإنسان من اكتشاف المجهول .

ممّا لا شك فيه ، يهتم أدب الخيال العلمي في تبسيط العلوم و جعلها في متناول الجميع ، فهو لا يقتصر على التفكير في الواقع فقط و إنّما يهدف إلى ترسيخ الثقافة العلمية و نشرها في الواقع المعيش حتى يحبها للقارئ ، لأنه بشكل عام هو أدب يبحث عن الاستشراف و التنبؤ . هو علم المستقبل أو المستقبليات يرتكز على الرياضيات و الفيزياء و التخمينات و دراسات مختلفة من أجل تحقيق هدف معين و هو رسم خطة ناجحة لمسار مستقبلي للمشاريع المختلفة .

إذن ، يلتقي الخيال العلمي بميادين معرفية كثيرة ؛ و من بينها و أهمها الفلسفة و الفكر العلمي . فالفلسفة تعد أم العلوم و هي أدب تأملي تبصيري ؛ يقول جي لاردو في أطروحته لنيل دكتوراه دولة : « إن كان الخيال العلمي يتطلب توهما ، فلكي ينتج فلسفة ، و إذا كان يبني (أي الخيال العلمي) عالما ،فلكي يمتحن العالم ...فهدف الخيال العلمي ليس هو صنع العالم يشبه العالم ، لكن أن يصنع عالما مشروطا و كأنه عالم ملموس ، فنية الخيال العلمي ليست على غرار " كاف" التشبيه أو " كما" بل على غرار كأن ...و موضوعه ليس هو الوهم ، و لكنه على غرار " كأنه وهم "»[16] . و يقصد بهذا ؛أن الخيال العلمي هو الكتابة في الواقع و لكنه واقع تخييلي ، و هو طريقة لاستنطاق الحياة بواسطة خيال الروائي .لأن الخيال العلمي يقترب و يعتمد على الفكر الفلسفي نظراً لاعتماد فكر الروائي على التفكير و الاستشرافات الممكن استنطاقها انطلاقا من الواقع الراهن للمجتمع ، للعالم ، للمعرفة و للتكنولوجيا و للثقافة و غيرها. و هذا ما يمكن أن نسميه بأدب اليوتوبيا المثالية ؛ و هذا ما نجده عند أفلاطون في الجمهورية / المدينة الفاضلة / محاكاة .فالفلسفة اتجاه إنساني يوظف الفكر لخدمة الإنسان و لحل مشكلاته الاجتماعية و الحياتية للبحث عن الحرية و الكرامة .

أما الفكر العلمي يعتمد عليه الروائي في كتابة رواياته على أساس من الحقائق ، مستخدما طرق و مواد لا تفوق مستوى المعلومات المعاصرة في صنع التاريخ و لهذا البعد الفلسفي و التاريخي للخيال العلمي ، يذهب كندال والتون أنه : « يمكن القول إن العلم نفسه لا يتصور من غير تخيل و خيال»[17] فالخيال العلمي خطاب أساسه الزمن الراهن ، زمن العولمة ، زمن أمهات ، و النكسات و الأخطاء و غيرها .

إذن ، ممّا لا ريب فيه ، علينا أن نضفي إلى هذا الخطاب و أن نعيه و نشارك في صنعه ؛ حتى نفهم العالم و نضع لأنفسنا فكرة مستقبلية واعية لتحقيق التطور الفلسفي و الفني و العلمي و التكنولوجي و إبراز الإنسانية المستقبلية .لأن الخيال العلمي هو البحث عن ما هو آتٍ للإنسان في المستقبل ، هو قفزة من المجهول إلى المعلوم ، و لا يكون ذلك إلا بالتفكير و البحث عن الواقع الفكر الإنساني و توجيهه إلى ما هو أفضل و أسمى .

الهدف من الخيال العلمي :

من أهم سمات رواية الخيال العلمي يمكننا أن نستدرجها في الخصائص التالية :

1) لا تعد رواية الخيال العلم "علما غايته المعرفة " و إنّما الهدف منها أن يقدمها كاتبها بقصد الإمتاع و تزويد القارئ بمعارف علمية و نظرية بسيطة بغية تنمية معارفه .
2) تعد " اللغة المستعملة في السرد و الحوار" في رواية الخيال العلمي 'خاصية أساسية' في تكوين الألفاظ و التراكيب و المصطلحات ، و قد تتصف هذه اللغة بالغرابة إن لم يكن القارئ يملك زادا معرفيا .
3) تهدف قصص الخيال العلمي إلى " التنبؤ بالمستقبل " فالكاتب يقدم نظرة واسعة على العالم ؛ يتداخل فيها خياله لإظهار حقائق و النظريات العلمية الموجودة و المحتملة – رسم أحداث تقع في الماضي ، الحاضر و المستقبل - .
4) ترمي " الرحلة الخيالية "في روايات الخيال العلمي لإظهار مكان تسلسل الأحداث لسكان الأرض إلى عوالم سواء كان في الماضي أو الحاضر أو المستقبل – قريب أو البعيد - ، لأن : « الحرص على الرحلة الخيالية يُعلي دائماً من شأن المكان في روايات الخيال العلمي و يكاد يجعله بطلا متمتِّعاً بالغرابة و البعد عن المألوف»[18] .
5) تستهدف روايات الخيال العلمي آفاق جديدة تنور بصيرة الإنسان و تهيئه للمصير المحتوم الذي قد يوجهه فهي : « أداة للثقيف و التعليم ، و وسيلة لمعرفة المجتمع ، و إضاءة التاريخ ، و استبطان الذات و مقاومة القمع ، و انتقاد المحرمات – الجنس ، الدّين و السياسة -»[19] .
6) يقصد التوسع و التحول الكتابة الروائية في المضامين و الأشكال روايات الخيال العلمي إلى اخراج الخيال العلمي من الثقافة الثانوية التي تستثمر افتراضيات علمية إلى الثقافة المضادة التي تكون لها علائق صراعية انتقادية مع الثقافة الرسمية السائدة .

و هذا ما يجعل **أدب الخيال العلمي يتميز** ببعض **العناصر الرئيسية**هي :

1) تعدد موضوعاته و اختلافها مع ا شكالاته المعقدة التي تتساءل في الوقت ذاته بين الماضي و الحاضر و المستقبل في الممكن و غير الممكن .

2) الخيال العلمي هو أدب يسائل الكون و ما فيه و ما يمكن أن يكون عليه أو ما كان عليه إلى حد المستحيل ، و هذا باستعمال المنطق العلمي و الأدوات العلمية .
3) تعالج موضوعات الخيال العلمي بتقنيات " الكتابة " فتكون أحيانا بلغة معلومة مفهومة و أحيانا أخرى بلغة جديدة تعتمد على تصور البنية التركيبية للجملة و للفظة ، إضافة إلى ابتكار مفردات و مصطلحات و عبارات.
4) يتميز الخيال العلمي بفضل اللغة و دورها الأساسي في تكوين الخطاب الأدبي – استعمال محسنات لفظية ، بلاغية ، تقنيات و فنون التعبير ، الأسلوب و الخطاب العلمي – الفرضيات ، الشروحات ، التحليلات ، و الوثائق ...- فالخيال العلمي هو مركز الفنون اللغوية و عين البحث عن الحقيقة ؛ لأن : « معرفة الواقع تتطلب معرفة اللغة و امتلاك أسرار اللغة هو امتلاك لخبايا العالم .هذه النقطة تبرز اللغة مرجعية واقعية تصير لغة تجريدية صورية»[20] فلا وجود للواقع دون الاعتماد على لغة التخاطب و التواصل ، إذ يصير واقعا أخرس عاجزا عن التواصل و نقل معارفه و تجاربه .

ندرة الخيال العلمي :

يبدو أن الأدب العربي لا يتوفر على نصوص الخيال العلمي ، و ليس هناك كُتاب اهتموا بهذا الجنس الذي احتل مكانة بارزة في العقود الأخيرة من الآداب العالمية .

و الأصح أن نقول ؛ لا يوجد غياب أو تغييب أو انعدام في رواية الخيال العلمي عن الأدب العربي ، و إنّما نقول هناك نُدرة لهذا الجنس الأدبي – الروائي – مقارنة أو قياساً إلى كَمِّ الإنتاج الروائي الصادر في الأقطار العربية . و إذا تفقدنا البيلبيوغرافيا العربية[21] بشكل غير دقيق قد لا يتجاوز خمسة و ثلاثين كاتبا عربيا كتبوا ضمن أدب الخيال العلمي سواءا في روايات و مجاميع قصصية و مسرحيات و من بين هؤلاء الكتاب : توفيق حكيم (قصة : في سنة مليون 1953 و مسرحية رحلة إلى الغد 1958) و مصطفى محمود (العنكبوت 1964و رجل تحت الصِّفر 1967) و نهاد شريف (قاهر الزمن 1966 و سكان العالم الثاني1982) و صبري موسى (الرجل منحقل السبانخ 1987) و طالب عمران (العابرون خلف الشمس 1987) ، حبيب مونسي (جلالته الأب الأعظم 2002) و فيصل الأحمر في رواية (أمين العلواني 2008)... .

من هذا المنظور ، يمكن القول ، أن رواية الخيال العلمي موجودة في الأدب العربي و لكن بنسبة أقل من بقية أنواع الرواية . و يمكننا تحديد غياب هذا الإنتاج الأدبي إلى قلة الأبحاث المشتركة في ربط صلة بين الكاتب و القارئ . و استنادا إلى انطباعات و ملاحظات فإن ندرة روايات الخيال العلمي تبدو مُتواترة باتجاه تأكيد النُّدرة .

أسباب ندرة رواية الخيال العلمي في الأدب العربي :

تندرج الأسباب الكامنة وراء ندرة الخيال العلمي في الأدب العربي إلى عدّة أسباب ، إذ يصعب تحديد منطق التحليل السوسيولوجي لهذه الظاهرة الثقافية ، التي توحي دائما إلى بعض التعليلات المحتملة لتأويل هذه الظاهرة ؛ و يمكن إجمالها في :

1. نقص علاقة الثقافة العربية الحديثة بالعلم ؛ لأن قلة تجدر " العلم " الحديث و مناهجه المتطوّرة في الثقافة العربية تحول إلى علاقة استهلاك و استراد. فالوطن العربي هو بحاجة ماسة إلى العلم و تكنولوجيا ، و هذه الحقيقة ترجع إلى تدهور الأوضاع التاريخية و سياسية ، هذا ما أدى إلى عدم استبطان العلم و تمثل رهاناته الشاملة و المتكاملة في تأسيس القيمة في بناء الفكر و السلوك و التحليل و المخيال .
2. تعطُّل إوالية الحراك الاجتماعي و السياسي في البلاد العربية و خاصة بعد الاستقلال ، لأن عدم بناء المؤسسات سياسية و اجتماعية لتنظيم الصراع الديمقراطي و الحرص على الانخراط في منطق العصر بما يضمن التوازن و الانفتاح أدى إلى تقليص الفكر و غياب الثقافة و المثاقفة في تشيد المستقبل العربي .
3. صعوبة تلقي التعليم و مشكلة المصطلحات و تطويع اللغة و ترجمة ؛ عوامل مهمة في تنشئة الجمهور القارئ الذي يتفاعل مع مختلف الخطابات الفكرية و التخييلية التي تستوحي معطيات العلم و فرضياته لإدماج أسئلة الحاضر بما سيكشف عنه المستقبل .
4. سؤال الرواية العربية المهيمن ؛ يعتبر الرواية أداة للتعلم و التثقيف و وسيلة لمعرفة المجتمع و استبطان الذات و انتقاد المحرمات (السياسة ، الدّين ، لجنس) و مقاومة القمع ...أي تمسك بحبال الواقع. هذا الارتباط و الالتزام

بالرواية أدى إلى " تَذْوِيتِ" الكتابة و سبْرتحقيق الموضوعية الأعمال التي كانت متوارية خلف اللغة المتخفية .

5. مجتمعنا بثقافته و حضارته ليس جاهزاً بعد لإنتاج هذا النوع الأدبي ، و سبب ذلك قد يعود إلى : أ-تكوين الكتّاب الذين قلما يكون تكوينهم علمياً .

ب- انشغالات الكتّاب الاجتماعية و الثقافية المحددة نسبيا و قبليا بموضوعات حول الديمقراطية و العدالة و حقوق الإنسان و المواطنة .

6.عدم تقديم الدعم المادي و المعنوي للكتّاب العرب[22] مقارنة مع العالم الغربي الّذي تقدم له فرص المجلات و الدوريات و لقاءات و ندوات التي تهتم بالخيال العلمي عن طريق تخصص : طبع ، النشر ، الجوائز . وتحقيق هذا الجزء في البحث العلمي يؤدي إلى تحفيز المنتجين للإنتاج وتحقيق الترويج .

الآفاق المستقبلية لأدب الخيال العلمي :

يتبدى لنا أن الخيال العلمي جنس تعبيري يمتلك إمكانات و خصائص تُسعف على نطاق التخييل بالأفق المستقبلية لكون ، و بالتالي يمكننا القول أنه يمكن لرواية الخيال العلمي أن تتجذَّر و يتّع حجمها و قراءتها في حقل الثقافة العربية ، و ذلك عن طريق عدة شروط منها : توافُر المواهب الإبداعية و الجمهور القراء و النقد التعريفي و التنظيري .

إذن، للنقد دور هام في إعادة الاعتبار للخيال العلمي في تحريره من الأحكام المسبقة (أسباب الخيال العلمي) فالنقد العربي يستطيع تصحيح مفهوم امكانات الخيال العلمي باتجاه حداثي نحو العلم و التكنولوجيا و الثقافة ...بدلا من المفهوم الانتقادي ، و هذا ما عبر عنه عمر نعيم صاحب فيلم المونتاج الأخير 2004 The Final Cut عن الوعي النظري قائلاً : « أن أتبنّى الخيال العلمي على أنه استعارMétaphore و ليس على أنه محاولة للتنبؤ بالمستقبل و لهذا السبب، كان الغرض من استخدام التكنولوجيا في فيلمي (المونتاج الأخير) هو استكشاف أحوال البشر ، و كيف أنها استطاعت أن تغير مفهومنا عن العالم الذي يحيط بنا ، و أيضا إدراكنا لحياتنا ذاتها»[23] .

إن ما يقر به عمر نعيم صحيح ، نعم الثقافة محدودة في الخيال العلمي العربي مقارنة مع كتاب الخيال العلمي الأمريكيون لأن الثقافة العربية تتفاعل مع الأجناس التعبيرية

بالطابع الكوني مثل : السينما و التلفزيون ، و هذا راجع إلى اتصال الدراسات بحياة الأجناس الأدبية ذات شروط أخرى ذاتية .

إذن ، حتى تتسع دائرة الأدب العربي اليوم أكثر فأكثر في مجال الخيال العلمي يجب الاتصال بباقي الميادين و مواجهة التحولات الوجودية و السياسة و الاجتماعية و الدينية و اللغوية ، و كذلك العلم الذي يعد مكوّن أساسي في كل تصوُّر للصيْرورة و المستقبل . و بهذا يمكن تحقيق أفق لرواية الخيال العلمي إذا تحقق الاتساع و الاهتمام في مجال الإبداع الأدبي العربي ، و هذا يتم إذا حدث اتصال قوي بقدرة الثقافة العربية – ثقافة المجتمع – على استبطان قيمة العلم و الاسهام في إنتاجه و جعله انتاجاً أساسياً في المنطق و التحليل و المقارنة و الاستقراء ؛ كل هذا من أجل تدعيم كَوْنية الأدب و الإبداع .

تيمات الخيال العلمي :

تقدم الفلسفة تيمات مركزية ذات بعد هام في حقل المعرفة البشرية ، فهي تطرح الكثير من الأسئلة حول ماهية الإنسان و تحولات أفكاره و تطور هواجسه و مخاوفه و أحلامه في عالم جديد يحمل رهان التطور و تقدم البدائل التكنولوجية الممكنة التي تطور الواقع و تفتح المستقبل على بوابات التغير و التحول .هذا التقدم كان من خلال صراع الإنسان مع " الطبيعة و الثقافة "حتّى يقوم ببناء هذا العالم في أحسن صورة أو شكل .

يعد الإنسان الكائن الوحيد الّذي منحه الخالق جهاز عصبي خاص و قدرات عقلية تنتج له امكانية ابتكار الأفكار و الأعمال الجديدة . يتميز هذا الجهاز بقدرته الفائقة في تغيير السلوك البشري من وقت لأخر ليتكيف مع الظروف البيئية و الاجتماعية دون الحاجة إلى ضرورة حدوث تغيرات عضوية يكتسبها الإنسان من مجتمعه منذ ولادته عن طريق الخبرة الشخصية ، و بما أن كل مجتمع انساني يتميز بثقافة معينة و محدودة بزمان و مكان ، فإنسان يكتسب ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه ، لأن الثقافة أفكار و أعمال الإنسان في علاقته مع العالم المّادي و الاجتماعي و الفكر الرمزي ؛ لم يقف عاجزا أمام البيئة الجغرافية ، بل حولها إلى آلات ، منازل ، أدوات ...فتحولت هذه العناصر المادية إلى أعمال إنسانية ، و كل عمل إنساني لا يستطيع أن يتم ما لم تسبقه فكرة و ارادة التنفيذ .

و من هذا المنظور ؛ فإن التحولات العلمية لا تتحقق إلاّ من خلال " مظاهر الثقافة " و هي : الدّين و الفلسفة و العلم .و من هذا المنطلق ظهرت موضوعات الخيال العلمي ، و من أهم تيمات الخيال العلمي : الرحلات ، العلمية و الاستشراف .

تمثل " الرحلات " أهم التيمات المتمظهرة و أقدامها في تاريخ التخييل : « فقلما يحدث حدث مهم في الخيال العلمي دون رحلة بل أن سلسلة روايات جول فيرن سميت حينما صدرت – الرحلات العجيبة Les Voyages Extraordinaires ذلك أن الرحلة حاضرة باستمرار و أبطال ويلز الأوائل يرحلون إلى القمر و يرحلون أيضا في الزمن و يرحلون صوب جزيرة العالم المجنون الدكتور مورو»[24] فأدب الخيال العلمي استطاع بفضل العمل الذكي على موضوع الرحلات أن يحول الكثير من القصص العلمية إلى ظواهر سينمائية عالمية تطرح جملة من القضايا المستقبلية الهامة المرتبطة بالإنسان : « فرحلات الفضاء في المستقبل تهدف إلى الوصول إلى سكان الكواكب الأخرى في الكون الواسع و التعاون معهم لحل المشاكل المغلقة بصورة جماعية»[25] .

و التيمة الثانية و هي " العلمية " لأن الأدب الخيال العلمي يهتم بالعلم و نظرياته و تداعيات مكتشفاته و تأثيرها على الإنسان و هذا ما شهده التاريخ عموما على العلاقة القائمة بين العلم و الأدب و هذا ما أكده الجاحظ في رسائله ، يقول : « وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التي يتفرع منها العلم لذوي ألباب أربعة ؛ فمنها النجوم و أبراجها و حسابها و منها الهندسة و ما اتصل بها من المساحة و الوزن و التقدير و منها الكيمياء و الطب و ما يتشعب من ذلك»[26] يبين هذا القول أن الجاحظ أدخل العلوم الرياضية و بعض العلوم الطبيعية في مجال الأدب .

إذن ، يمزج الروائي العلم بالأدب في كتابة الخيال العلمي لتوظيف الكثير من المعطيات و النظريات العلمية في نسيج أدبي الذي يهدف إلى نشر الحقائق العلمية و شرح جوانبها و تفرعاتها ، فتيمة العلمية مهمة في كتابة الخيال العلمي .

و من التيمات المهمة أيضاً في كتابة الخيال العلمي " الاستشراف " ، هذا العنصر يلتقي مع تيمات أخرى ذات البعد الفلسفي : كالتنبؤ ، المستقبلية و الغدية . فالخيال العلمي يقوم على افتراض واقع تخييلي يلامس حدود المستقبلية بأسئلة نابعة من راهن التقدم العلمي و المعرفي ، و يرى طالب عمران أنه : « قد تمكن بفعل التبصر هذا كثير من

كتاب الخيال العلمي من توقع كثير من الأحداث المستقبلية فما تنبأ به جورج ويلز في رواياته العلمية التي ظهرت قبل عام 1900 من كوارث البشرية بفضل التقدم العلمي و استخدام العلم في الطريق المناقض للمبادئ الإنسانية ، حدث إبانة حياته حين اندلعت الحربان الأولى و الثانية و أودت بملايين من البشر مجازر بشعة»[27].

و هكذا ، إذاً ، تتعلق القضايا الاستشرافية بمستقبل الإنسان و بالأخطار التي تهدده و تعمل على التوعية و التحذير مما يهدد البشرية لأن دور الخيال العلمي هو تأمين مستقبل البشرية و حمايتها :« إذ تشير المقولات المستقبلية إلى أن أي إنسان يتوقع مواجهة الصعبات المقبلة و يريد التغلب عليها بصورة مطلقة لا بد أن يقرأ أدب الخيال العلمي . و يثبت آثر كلارك أن القراءة النقدية لأدب الخيال العلمي بمثابة تدريب أساسي لمن يتطلع إلى الأمام أكثر من عشر سنوات »[28].

و في هذا الصدد ، يلمح نهاد شريف أن :« التصعيد الهائل لابتكار المزيد من أدوات القتل و الدمار و من ثم الانزلاق إلى حلبة سباق التسلح يولد آن ردة فعل صحيحة في كافة أنحاء العالم كما يتزايد عدد العلماء و في مقدمتهم الأطباء الذين ينضمون لمعارضة سباق الفناء ، إلا أن عبئ المعارضة الرئيسي تتفرد به أقلام بالغة الموضوعية و التحمس ، لعل أبرزها ما تندرج تحت مظلة أدب الخيال العلمي و تتفاعل بأسلوبه و رؤاه خاصة من خلال تطور الأحداث و صور الأشياء في الزمن القادم »[29].

يمكننا القول، إذن، يدور أدب الخيال العلمي في فلك الخوارق و الطاقات فوق إنسانية كسرعة التنقل و الذكاء الاصطناعي و غيرها. إضافة إلى هذه التيمات ؛ هناك تيمات أخرى يحفل بها أدب الخيال العلمي في تشكيل عوالمه التخييلية و هي : المفارقة ، صنع التاريخ و انتصار الإنسان على الآلة .

تعد روايات الخيال العلمي الشكل التعبيري السردي الذي مكن الروائي من استخدام الزمن المستقبلي ، و هذا مع اللعب بأزمنة الثلاثة : الماضي و الحاضر و المستقبل ، مع استثمار المعطيات العلمية المتعلقة بالإنسان و المكان و الفضاء ، اضافة إلى المعطيات السياسية و الفكرية الفلسفية ؛ كل هذا من تقديم رؤية واضحة في بناء التقدم العلمي و التكنولوجي للعالم .

الخلاصة :

ما نستنتجه ، أن نصوص رواية الخيال العلمي مرجعها خارج ذاتها ، هي الواقع في أزمنة الثلاثية ، كما أنها تعالج الواقع السياسي و الاجتماعي بطريقتها الخاصة ؛ من خلال إدخال عنصر الدهشة و الغرابة و توظيف بعض الخطابات (الخطاب الديني ، الخطاب الفلسفي ،الخطاب العلمي و التاريخي ..) و هذا ما يؤكده فولغفانغ إيزر في : « أننا ألفنا منذ أمد طويل تعريف النصوص الأدبية ، بأنها خيالية و هذا التصنيف ، يميز النص الأدبي بشكل واضح عن تلك النصوص التي تعتبر حسب الاصطلاح السائد ، نصوصا تفسيرية، أي أن لها مرجعا خارج ذاتها .و هذا التعارض بين الواقع و التخييل عنصر أساسي في ما تسميه سوسيولوجيا المعرفة بالمعرفة الضمنية و هذا المصطلح يدل على مخزون المعتقدات التي تبدو قائمة على أساس سليم حيث يمكن اعتبار حقيقتها شيئا مسلما به . و مهما كان هذا التمييز ملائما ، فهل يمكن أن يكون جاهزا كما هو باد للعيان ؟ و هل النصوص التخييلية هي حقا نصوص تخييلية ؟ و هل تكون نصوص غير التخييلية دون خيال ؟ إن تضمينات و نتائج هذا السؤال ، تؤدي بنا إلى التشكيك فيما إذا كانت معرفتنا ضمنية تستطيع مساعدتنا على تجاوز الصعوبات»[30] .

ما نخلص إليه في منتهى القول، أنه كي تتحقق كتابة رواية الخيال العلمي يجب على الروائي أن يكون ذو معرفة ضمنية؛ من أجل خلق عالما سرديا متعددا ممتدا إلى كافة الحقول المعرفية .كما أن كتاب رواية الخيال العلمي في أغلب الأحيان يوهموننا بوقائع و أسماء و أحداث مفارقة فانتاستيكية التي تتسم بـ: الغرابة و البعد عن الواقع ، و هكذا يقودنا كتاب رواية الخيال العلمي إلى أماكن مجهولة و مسارات غير متوقعة هدفها تقدم المتعة للقارئ و تزويده بمعارف و نظريات علمية .

الهوامش :

1.طه حسين ، خصام و النقد ، دار العلم للملايين ، 1981 ،ص: 444 .

2. . Carlos Fuentes ; Eloge du roman ; le mode diplomatique ; décembre ;2005 ; p : 29

3.. Yves Reuter ; Introduction à l'analyes du roman ;dunod paris ;1996 ; p:2 -7

4.ميخائيل باختين ، الملحمة و الرواية ، ترجمة : جمال شحيّد ، معهد الأنماء العربي، بيروت ، ط:01 ، 1982 ، ص: 20 .

5. . Stable ford Brian; williamwilson be foe science fiction ; in foundation ; N¯10; 15 juin ;1978 ;p: 6-12

6. Louis vincentthomaas ; Utopies ; science fiction et fantasmes ;

Recherche. 17 sociologique ;1990 /1 ; p :08 .

Jacques Baudou:la science fiction:ed:puf: paris:2003:p:05 .7

8. ليزا توتلي ، فن كتابة الفانتازيا و الخيال العلمي ،ترجمة كمال الدين حسن ، الدار المصرية اللبنانية ، ط: 01 ، 2008 ، ص : 14 .

9. مجدي وهبة ، معجم مصطلحات الأدب (مادة ملحمة) ، مكتبة لبنان ، 1974 ، ص : 503 .

10. رؤوف وصفي ، مقدمة ترجمة كتاب – مسرح الخيال العلمي لراي براد يوري ، الكويت ، 1985 ، ص :05 .

11. مها مظلوم خضر ، الراوي في روايات الخيال العلمي في الأدب المصري المعاصر – ضمن أدب الخيال العلمي ، يرمم مطبوعات مؤتمر أدباء مصر في الأقاليم ، 1999 ، ص : 110 .

12. طارق الجبوري ، سينما الخيال العلمي ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، 2001 ، ص : 62 .

13. نوري جعفر ، أدب قصص الخيال العلمي و عالم الأطفال ، بغداد ، دار الثقافة ، الأطفال ن 1978 ، ص : 18 .

14. شوقي جلال ، الخيال العلمي و المستقبل الوعي الإنساني – مقال ضمن مجلة العربي – الكويت ، العدد : 539 ، أكتوبر 2003 ، ص : 30-31 .

15 .جورج تيرنر ، الخيال العلمي كأدب ، ترجمة : كوثر الجزائري ، الثقافة الأجنبية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1983 ، ص : 116 .

Guy Lardeau;fiction philosophique et science fiction ; acte sud ; 1988 ; p: 12-13 ..16

Kandalwalton ; mimesis and make believe ; Harvard university ; ; P:18 . 1990.17

18. حسين فهيم ، أدب الرحلات ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد : 138 ، الكويت 1989، ص: 165-166 .

19. محمد برادة ، الرواية ذاكرة مفتوحة –آفاق- ، القاهرة ، ط: 01 ، 2008 ، ص : 103 .

S.K.Saumian ; le problème de la réalité linguistique in recherches internationales ; N: 81-4 ;1974 ;p .20
: 13 .

21. هذا ما تم اعلنه في ندوة القصة العربية و رؤى المستقبل في ملتقى الدوحة 26.03.2006 .

22. لا يوجد تحفيز للكتّاب بصفة عامة ،و على سبيل المثال ما نشاهده اليوم في الأقطار العربية عامة ؛ أن دعم المادي و المعنوي الذي يقدم للفنان – المغني – بالملايين و الشهرة ... كان من أفضل تقديمه لطبقة الواعية التي تزيد من ارتقاء الوطن من علم و حضارة و ثقافة ؛ أي ما يقدم للفنان لا يقدم للكاتب و للمحامي و للطبيب و للمعلم و للمهندس...و هذا السبب في حدِّ ذاته يؤدي إلى القلة و الندرة في جميع الميادين (عدم المبالات) .

23. حوار من انجاز : صفات أمين سلامة ، جريدة الشرق الأوسط ، 30 نوفمبر 2005 .

24.فيصل الأحمر ، التيمات الخمس – مدخل إلى الخيال العلمي – ضمن مجلة الثقافة ،العدد : 02 ، مارس 2004 ، ص : 59 .

25. طالب عمران ، في الخيال العلمي ، دار أبي رشد للطباعة و النشر ، ط:01 ، 1980 ، ص : 27 .

26. نقلا عن : نبيل راغب ، التفسير العلمي للأدب ، لبنان ناشرون ، 1997 ، ص : 318 .

27. طالب عمران ، في الخيال العلمي ،مرجع السابق ، ص : 45 .

28.روبرت سكولز و آخرون ، آفاق أدب الخيال العلمي ، ترجمة : حسن حسني شكري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1996 ، ص : 107 .

29 .نهاد شريف ، الدور الحيوي لأدب الخيال العلمي في ثقافتنا العلمية ، كراسات مستقبلية ، المكتبة الأكاديمية ، 1997 ، ص : 29 .

30.فولفغانغ إيزر ، التخييلي و الخيالي من منظور الأنطوبولوجية الأدبية ، ترجمة : حميد لحمداني و الجيلالي الكدية ، مطبعة النجاح الجديدة ، ط: 01 ، 1998 ، ص : 07 .